الإمام شرف الدين الطيبي:
دراسة في سيرته الشخصية ومنهجه العلمي

الباحث محمد حراز

أستاذ التعليم العالي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

جهة طنجة تطوان الحسيمة

المغرب

تمهيد:

الحمد لله الذي رفع قدر العلماء ببيان آياته، وأنار بصائرهم بفهم دقيق سننه وبديع كلماته، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد الذي أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه الذين حفظوا لنا شريعة الحق، ونقلوها غضة طرية إلى سائر الأمم.

أما بعد؛ فإن تاريخنا الإسلامي حافل بقامات علمية لم تقف عند حدود تخصص واحد، بل كانت موسوعات تمشي على الأرض، جمعت بين دقة المحدث، ونظر الفقيه، وذوق اللغوي، وبلاغة المفسر. ومن بين هذه القامات السامقة التي تلألأت في سماء القرن الثامن الهجري، يبرز اسم الإمام العلامة الحسين بن عبد الله بن محمد، المشهور بـ "شرف الدين الطيبي" (المتوفى) سنة 743هـ ...

لقد عُدَّ الطيبي –رحمه الله– في طليعة "خواتيم المحققين"، وأحد أركان النهضة العلمية التي شهدتها بلاد فارس وما وراء النهر في عصره. ولم تكن مكانته نابعة من سعة حفظه فحسب، بل من منهجية فريدة مكنته من سبر أغوار النصوص الشرعية، واستنطاق مكامن الجمال والجلال فيها عبر أدوات "علم البلاغة" التي كان سيد فرسانها في زمانه.

تتجلى أهمية دراسة الإمام الطيبي في جانبين رئيسيين:

أولهما: الجانب الشخصي والتربوي؛ حيث لم يكن الطيبي مجرد "عالم نظري"، بل كان نموذجاً للعالم العامل، المنفق ماله في سبيل العلم، الذي كان يبذل جُلَّ طاقته وثروته لإعالة طلابه وتهيئة السبل لهم، مما جعل مدرسته قبلةً للنابهين، ومحضناً لجيلٍ من العلماء الذين حملوا لواء التجديد من بعده.

ثانيهما: المنهج العلمي الفريد؛ فالطيبي صاحب رؤية نقدية بامتياز. يظهر ذلك جلياً في تعامله مع "كشاف الزمخشري"، حيث استطاع ببراعة فائقة أن ينقي دُرره البلاغية مما شابها من آراء اعتزالية، فكان حارساً للعقيدة بلسان أهل السنة ومشارط البلاغيين. كما يتجلى نبوغه في شرحه لـ "مشكاة المصابيح" في كتابه العظيم (الكاشف عن حقائق السنن)، حيث وضع القواعد المنهجية التي تربط بين علم الحديث وعلم المعاني، في تناسق قلَّ نظيره في كتب الشروح.

إن هذا البحث الذي بين أيدينا، والموسوم بـ "الإمام شرف الدين الطيبي: دراسة في سيرته الشخصية ومنهجه العلمي"، لا يسعى فقط لتوثيق محطات حياته التاريخية، بل يطمح لاستجلاء معالم "المدرسة الطيبية" في الفكر الإسلامي. إنها محاولة لاستكشاف كيف استطاع هذا الإمام أن يمزج بين العلوم النقلية والعقلية، وكيف وظف "جماليات اللغة" لخدمة "حقائق الوحي"، بما يفتح آفاقاً جديدة للباحثين المعاصرين في فهم آليات التراث وتجديد قراءته.

ومن هنا، سنقف في هذه الدراسة عند محطات حياته في "طيب" ومجالسه العلمية، ثم نعرج على نتاجه الفكري الثري، لنخلص في النهاية إلى تحليل الخصائص المنهجية التي جعلت من "الطيبي" مرجعاً لا يستغني عنه طالب علم في التفسير أو الحديث أو البلاغة.

1-الحسين الطيبي

هو شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، من أهل "توريز" ببلاد عراق العجم، علامة عصره، إمام في التفسير والحديث والبلاغة وغير ذلك من العلوم، جمع بين المعقول والمنقول، كان مشتغلا بالتدريس والتأليف، وعرف في المصادر بشغفه العلمي وحبه للعلماء، فقد كان آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، مولعا باستخلاص النكت البلاغية واللمسات البيانية واللطائف اللغوية. إضافة إلى كونه متصفا بالأخلاق السامية التي طبعت شخصيته حيث كان مثالا في التواضع والإنفاق والكرم ومتشددا في مواجهة الأهواء والبدع، وكل ما يخل بالقيم الإسلامية والقواطع الشرعية، ومتمسكا بعقيدته الصحيحة في الرد على أهل الملل والمعتقدات المذهبية. وكان يعتمد في معاشه على ما آل إليه من حقه في الإرث، وما عاد إليه من التجارة، مع الإكثار من الإنفاق على ذوي الحاجة من طلبته، وظل على هذه الحالة حتى افتقر في آخر عمره، وكف بصره، لكنه بقي مستمرا في دراسة العلم، فجعل تفسير القرآن الكريم من الصباح إلى الظهر ، وصحيح البخاري إلى العصر، إلى أن مات بين هذين، فبعد أن أنهى درسه في التفسير واتجه يطلب حصة الحديث، أدركته الصلاة فدخل المسجد فصلى النافلة في انتظار الفريضة غير أنه كان في انتظار المنية داخل هذا المسجد، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان عام سبعمائة وثلاثة وأربعين من هجرة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام. ([1])

2 – اسمه ولقبه ونسبه وكنيته

الراجح لدى المحققين أن اسمه الحقيقي الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي خلافا لمن سماه بالحسن أو الحسين بن محمد الطيبي، أو غيره ذلك.([2]) وقد اشتهر الطيبي بألقاب عديدة وصفه بها الأئمة الذين أعجبوا به وترجموا له، ومن ذلك اشتهاره بلقب "شرف الدين" إضافة إلى ألقاب أخرى حيث وصفوه "بالإمام الهمام" ([3]) و "العلامة" ([4]) و "الحافظ" ([5]) و "الفاضل المحدث المفسر" ([6]) و "شارح الكشاف".([7])

وبالنسبة لنسبه فهو الطيبي نسبة إلى الطيب مسقط رأسه وهي بلدة بين واسط والسوس، وهي تقع ضمن مدن " خوزستان " بجنوب مملكة إيران في ذلك الزمان ([8]) كما ذكر ابن خلدون أيضا أن الطيبي " من أهل توريز من عراق العجم ([9]) أما كنيته فقد ذكر بروكلمان أنه يكنى بأبي عبد الله أو أبي محمد ([10]).

---

1 – الدرر الكامنة لابن حجر (68/2 –69)، «بغية الوعاة» للسيوطي (1/ 522).
طبقات المفسرين للداودي (146/1) « البدر الطالع» للشوكاني (156/1).
شذرات الذهب لابن العماد (137/6).
كشف الظنون لحاجي خليفة (341–720–1240–1478) «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة (90/2).
هدية العارفين للبغدادي (285/5) « تاريخ الأدب العربي» لبر وكلمان المجلد السادس (10–11) (233–239). «الأعلام» للزر كلي (156/2) « معجم المؤلفين» لرضا كحالة (53/4).

2 – انظر مقدمة كتاب التبيان في البيان للطيبي بتحقيق عبد الستار حسين زموط الصفحة (16).

3 – السبكي: (طبقات الشافعية الكبرى) 76/10.

4 – حاجي خليفة (241/1).

5 – إسماعيل باشا البغدادي هدية العارفين.(285/1).

6 – القمي : الكنى والألقاب ص 416.

7 – ابن العماد: شذرات الذهب (137/6).

8 – القلقشندى: صبح الأعشى (257/4).

9 – تاريخ ابن خلدون– دار الكتاب اللبناني (788/2–789).

10 – تاريخ الأدب العربي (217/5).

3 – أسرة الطيبي

لا نكاد نجد شيئا من المعلومات بشأن أسرة الطيبي في كتب التراجم، غير أننا لا نسلك سبيل الشطط إذا جزمنا انه ينتمي إلى أسرة فاضلة وإن أبويه صالحان، قد بثا فيه مكارم الأخلاق وحب العلم والتدين، ويتضح ذلك من خلال قوله في خاتمة حاشيته على الكشاف : "وارحم أبوي اللذين قوما أودي، وأصلحا عوجي، ودعواني إليك بكل خير، وأعاذاني بك من كل شر... واخلفنا في أهالينا وذرياتنا، واسلك بهم الصراط المستقيم، وارحم سبيل المتقين، واجعلهم من عبادك الصالحين برحمتك يا أرحم الراحمين. ([11])

4 – عصره

لقد اتفقت مصادر ترجمة الطيبي على انه توفي سنة 743 هـ بدون خلاف بين من ترجموا له.([12]) وفي هذه المرحلة التاريخية كانت إيران موطن الطيبي تحت الحكم المغولي الإيلخاني بعد أن توالت عليها غزوات جنكيزخان ومن بعده هولاكو الذي نزل سنة 654 هـ بأذربيجان وأخذها واكتسح بغداد وقضى على الخلافة العباسية سنة 658 هـ .([13])

إن ظروف الواقع السياسي في هذا العصر قد أدت إلى عدم اشتهار الطيبي ذلك أن نظام الحكم المغولي كان يستبعد كل علماء السنة المخلصين أمثال الطيبي الذي عرف عنه انه "كان حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرا فضائحهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين حينئذ ، شديد الحب لله ورسوله، وغير ذلك مما يدل على شدته على من خالف أهل السنة من الفرق ". ([14])

ولقد كان لوزراء الحكم الإيلخاني تغلغل ونفوذ في حكم البلاد إلى درجة أن أصبح الوزير هو السلطان في واقع الأمر، ومن ثم فلا عجب أن يعمل هؤلاء الوزراء على التنكيل بكل من ينتسب إلى عقيدة أهل السنة فضلا عمن يظهر العداوة والبغضاء كالطيبي رحمه الله. ([15])

ورغم كل هذا التهميش، فقد تأثر الطيبي في تكوينه العلمي بالحالة العلمية في عصره عامة وفي الدرس البلاغي خاصة ، حيث كان هذا العصر عصر العلماء الموسوعيين في مختلف العلوم والفنون وذلك كالقاضي البيضاوي والقاضي عضد الدين الإيجي، والمولى نصير الدين الطوسي، وقطب الدين الشيرازي وغيرهم كثيرين. ([16])

5– عقيدة الطيبي ومذهبه

يذكر ابن حجر أن الطيبي كان حسن المعتقد شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرا فضائحهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين حينئذ، شديد الحب لله ورسوله... شرح الكشاف شرحا كبيرا، وأجاب عما خالف أهل السنة أحسن جواب" ([17]) ويقول عنه ابن خلدون "ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي.. شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم.([18])

---

11 – فتوح الغيب نسخة ق 184 . الخزانة العامة الرباط.

12 – انظر مبحث التعريف بالطيبي.

13 – دونالدولبر: إيران .. ما ضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم حسين– مكتبة مصر – القاهرة ص 65–66.

14 – ابن حجر: الدرر الكامنة (156/2).

15 – القلقشندى: صبح الأعشى (423/4–424).

16 – الشيخ المراغي: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص 142–143، إيران ماضيها وحاضرها ص 72–73.

17 – ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة 156/2

18 – تاريخ ابن خلدون 789/788/2

ونفهم من هذه الشهادات أن الطيبي كان على عقيدة أهل السنة والجماعة مخالفا لأهل البدع. وأما مذهب الطيبي الفقهي فقد رجح أحد المحققين أنه على المذهب الشافعي، ([19]) في حين رجح البعض الآخر أنه غير ملتزم مذهبا بعينه ([20]).

6 – صفاته وأخلاقه

أورد ابن حجر أنه قرأ بخط بعض الفضلاء عن الطيبي أنه: "كان ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيرا... وكان كريما، متواضعا... كثير الحياء، ملازما للجماعة، ليلا ونهارا، شتاء وصيفا، مع ضعف بصره بآخرة، ملازما لإشغال الطلبة في العلوم الإسلامية بغير طمع، بل يحذيهم ويعينهم، ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان، من يعرف ومن لا يعرف، محبا لمن عرف منه تعظيم الشريعة، مقبلا على نشر العلم، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة. ([21]) وذكر السبكي ([22]) أن إبراهيم الجار بردي قد عده من "العلماء الأبرار، و الصلحاء الأخيار" ووصفه بـ"الإمام الهمام الشيخ".

7–مكانته العلمية:

إن الذين ترجموا للطيبي ([23]) نقلوا عنه أنه كان شديد الرد على الفلاسفة وأهل البدع مظهرا لفضائحهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين آنذاك، وكان ملازما لإشغال الطلبة في العلوم الإسلامية، وكانت لديه الكتب النفيسة، وكان آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة وأنه شرح الكشاف شرحا كبيرا، وأجاب عما خالف مذهب أهل السنة أحسن جواب...وصنف في المعاني والبيان "التبيان" وشرحه، وأمر بعض تلامذته باختصاره على طريقة نهجها له، وشرح "مشكاة المصابيح" شرحا حافلا، ثم شرع في جمع كتاب في التفسير، وعقد مجلسا عظيما لقراءة كتاب البخاري.

وذكر الإمام السيوطي في وصف الطيبي بأنه "العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان ([24]) في حين عده الأستاذ قدري طوقان في علماء الرياضيات، وترجم له بينهم ([25])، ووصفه الأستاذ عمر كحالة بأنه "عالم مشارك في أنواع من العلوم".([26])

8– مؤلفاته العلمية

خلف الطيبي مجموعة من الكتب والمؤلفات العلمية في مختلف المجالات، مما يدل على عبقريته الموسوعية، وهذه المصنفات هي:

أ– التبيان في البيان: ([27])، وهو كتاب في علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

ب– لطائف التبيان في المعاني والبيان: ([28])، وهو كذلك في علوم البلاغة وعبارةً عن ملخص لكتابي "مفتاح العلوم" للسكاكي و"نهاية الإيجاز" للرازي، وعن محتوى هذا الكتاب يقول الطيبي "هذا وإن كتابنا يتضمن المباحث الشريفة، واللطائف العجيبة، والنكات الغريبة

---

19 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي – دراسة وتحقيق ج الأول ص 33 – رسالة لنيل الدكتورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بظهر المهراز فاس، إعداد عبد الرزاق فاضل 2005/2004.

20 – عبد الحميد أحمد هنداوي: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي – دراسة وتحقيق ج1/ ص20.

21 – الدرر الكامنة (156/2).

22 – طبقات الشافعية (76/10).

23 – ابن حجر: الدرر الكامنة 156/2. طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة 101/2. ابن العماد: شذرات الذهب 137/6. الداودي: طبقات المفسرين 143/1 .الزركلي: الأعلام 156/2.

24 – بغية الوعاة /522.

25 – تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص 434.

26 – معجم المؤلفين 53/4.

27 – والكتاب مطبوع بتحقيق ودراسة علمية لنيل دكتوراه، للدكتور عبد الستار حسين زموط– دار الجيل بيروت الطبعة الأولى 1996.

28 – وقد حققه الأستاذ عبد الحميد يوسف هنداوي، وطبعته المكتبة التجارية بمكة بدون تاريخ.

والحجج العقلية، والأدلة النقلية، ويشتمل على الأمثلة المناسبة والشواهد المتقاربة من غير إيجاز مخل وإطناب ممل، وسميته لطائف التبيان في علم المعاني والبيان". ([29])

ج- حاشية على الكشاف: وهي المسماة "بفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب" وهي حاشية ضخمة تقع في عدة أجزاء، أثنى عليها العلماء كثيرا، ([30]) ولها قيمة بلاغية سنتناولها بالتفصيل في بحثنا هذا.

د- الكاشف عن حقائق السنن: ([31]) وهو كتاب شرح فيه الطيبي أحاديث مشكاة المصابيح، والتي جمعها تلميذه الخطيب التبريزي بإشارة من الطيبي نفسه على تلميذه بذلك، كما يؤكده الطيبي في نهاية كتابه، وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب.([32])

هـ- شرح أسماء الله الحسنى. ([33])

و- الخلاصة في أصول الحديث .([34])

ز- شرح التائية الكبرى. ([35])

ح- شرح التبيان: وقد شرح فيه كتابه البلاغي "التبيان في البيان" .([36])

ط- كتاب في التفسير. ([37])

ي- مقدمات في علم الحساب. ([38])

---

29 - مقدمة لطائف التبيان ص 29- تحقيق عبد الحميد هنداوي.

30 - الدرر الكامنة (156/2) طبقات المفسرين (143/1) تاريخ ابن خلدون(778-789) البدر الطالع (200/1-229).

31 - طبع بتحقيق وشرح عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة- الرياض- الطبعة الأولى 1997.

32 - الدرر الكامنة (156/2)- روضات الجنات (98/3).

33 - ذكر عبد الحميد هنداوي أنه يوجد مخطوط هذا الكتاب في دار الكتب المصرية رقم (168- مجامع طلعت) ميكرو فيلم 9583. انظر مقدمة تحقيق لطائف التبيان ص 30.

34 - وهو كتاب في علم الحديث ومصطلحه. طبع بتحقيق صبحي السامرائي سنة 1971 مطبعة الارشاد ببغداد- الطبعة الأولى.

35 - وهذا الكتاب شرح لقصيدة صوفية طويلة عدد أبياتها (756)، وهي لأبي حفص عمر بن الفارض المتوفى سنة 576هـ. وقد اثبت الأستاذ عبد الحميد الهنداوي نسبته إلى الطيبي في مقدمة لطائف التبيان ص 30.

36 - ابن حجر: الدرر الكامنة (156/2) الداودي: طبقات المفسرين (114/1) شذرات الذهب (128/6) مفتاح السعادة (101/2) الاعلام (156/2).

37 - ابن حجر الدرر الكامنة (156/2) الداودي طبقات المفسرين (114/1) شذرات الذهب (128/6) مفتاح السعادة (101/2) الاعلام (156/2).

38 - قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص 434.

خاتمة واستنتاج :

في ختام هذه الدراسة الموسومة بـ "الإمام شرف الدين الطيبي: دراسة في سيرته الشخصية ومنهجه العلمي"، نخلص إلى أن هذا الإمام لم يكن مجرد شارحٍ للنصوص أو ناقلٍ للمعلومات، بل كان صاحب مدرسة متميزة استطاعت جسر الهوة بين "علوم الآلة" (البلاغة والمنطق) و"علوم الغاية" (التفسير والحديث) .

ويمكن إجمال أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها الدراسة في النقاط التالية:

أولاً: تكامل الشخصية العلمية والتربوية: أثبتت الدراسة أن الطيبي قدم نموذجاً فريداً للعالم "المؤسسي"؛ حيث لم يكتفِ بالتأليف، بل سخر ماله وجاهه لبناء بيئة علمية حاضنة لطلابه، مما جعل من مدرسته في "طيب" مركز إشعاع حضاري تجاوز حدودها الجغرافية.

ثانياً: الريادة في "فقه النص" البلاغي: استطاع الطيبي من خلال مؤلفاته –وعلى رأسها "الكاشف"– أن يثبت أن البلاغة ليست ترفاً لغوياً، بل هي أداة ضرورية لفهم "مقاصد الشارع" واستخراج دقائق الأحكام من بطون الأحاديث والآيات.

ثالثاً: الموقف النقدي المتزن: كشفت الدراسة عن قدرة الطيبي الفائقة على التعامل مع التراث الاعتزالي (كشاف الزمخشري نموذجاً) بروح نقدية عالية؛ حيث استخلص "الذهب البلاغي" ونفى عنه "كدر العقيدة"، مما وفر للمكتبة السنية مرجعاً آمناً وعميقاً.

رابعاً: الأثر الممتد: إن بصمات الطيبي لا تزال واضحة في كل من جاء بعده من شراح الحديث، وخاصة في "مرقاة المفاتيح" للملا علي القاري وغيره، مما يؤكد خلود منهجه وقبول طرحه لدى الأمة.